الاقتباس بين المصطلح والمفهوم

رحمة الله أوريسي
المشرف: د. عبد القادر البار، أستاذ محاضر "أ"
مخبر اللسانيات النصية وتحليل الخطاب
جامعة قاصدي مرباح ورقلة

ملخص
تحاول هذه المداخلة الإلمام بالمفاهيم الخاصة بظاهرة الاقتباس، خاصة بعد أن حظي هذا الأخير باهتمام الأدباء عموما، والروائيين بصفة خاصة، وأصبح جزءا لا يتجزأ من إبداعهم. وبما أن الاقتباس تعالق مع العديد من المصطلحات النقدية والبلاغية، حصل الاختلاف بين كل هؤلاء؛ فمنهم من اشترك في الأصل ومنهم من خالف أجزاءه الأمر الذي أسس لإشكالية المصطلح، وعليه ستدور هذه المداخلة حول المفاهيم اللغوية والاصطلاحية للمصطلح محاولة فك بعض الخلافات القائمة بين الدارسين.
الكلمات المفتاحية: *الاقتباس، التداخل النصي، التضمين.*

Résumé
La citation entre le terme et le concept
Cette intervention tente de se familiariser avec les concepts de citation, en particulier après que ceux-ci aient attiré l'attention des écrivains en général et des romanciers en particulier, et sont devenus une partie qui n'ose pas les inventer. Étant donné que la citation est inextricablement liée à de nombreux termes critiques et rhétoriques, il existe une différence entre chacun d'entre eux : certains d'entre eux étaient à l'origine impliqués et d'autres n'étaient pas d'accord, ce qui a posé le problème du terme, raison pour laquelle l'intervention traitera des concepts linguistiques et de la terminologie du terme.
Mots-clés *: citation, interférence de texte, enrobage.*

Abstract
The quote between the term and the concept
This intervention attempts to gain familiarity with the concepts of citation, especially after the latter has received the attention of the writers in general and the novelists in particular, and has become a part that does not dare to invent them. Since the quotation is inextricably linked to many of the monetary and rhetorical terms, there is a difference between all of them. Some of them were originally involved and

some of them disagreed, which established the problem of the term. Therefore, this intervention will deal with the linguistic concepts and terminology of the term.
***Keywords**: Quota, Text Interference, Embedding.*

يعد النص الأدبي العربي المعاصر عامة، والروائي بصفة خاصة من أهم قنوات التواصل المعرفي[1]، ذلك أنه أرقى علامة سطرها الإنسان، لتدل عليه من ناحية، وتخلد أفكاره، ومعتقداته، وعوالمه الممكنة من ناحية أخرى[2]. ويعد الاقتباس -في إطار البلاغة العربية القديمة- محسنا من أهم المحسنات البديعية التي تعمل على تأثيث النص الأدبي من جهة، وزيادة جماليته من جهة أخرى؛ فهو – الاقتباس- عملية تضمين تقوم على الاقتطاع والإدراج؛ اقتطاع نصوص من القرآن الكريم، أو الحديث النبوي الشريف، أو الفقه، وإدراج ما تم اقتطاعه من هـــذه النصوص لتقع ضمن الكلام سواء أكان شعرا أم نثـــرا[3]، وبالنظر في هذا الأخير – الاقتباس- سنجد أنه جزء لا يتجزأ من الإبداع العربي عامة، والروائي المعاصر بصفة خاصة، ذلك أن الروائيين أصبحوا يوظفون هذا المحسن البديعي في أعمالهم الأدبية للرقي بها، وتدعيم الكتابة الإبداعية، وتكثيف دلالتها.

وإذا حاولنا تتبع موضوع الاقتباس فسنجد أنّه ظاهرة جمالية بارزة شهدها تاريخ البلاغة العربية، والنقد منذ القدم، وامتد الاهتمام بها إلى وقتنا الحاضر. ولعل المتأمل لهذه الظاهر في القديم، وفي وقتنا الراهن سيلاحظ إشكالية في توظيف المصطلح ومفهومه، بل إنّه؛ وأعني مصطلح الاقتباس تعالق مع العديد من المصطلحات النقدية من بينها: الانتحال، والسرقة، والأخذ، والسلخ، والاحتذاء، والاتفاق، والنقل، والمعارضة، والموارد [4]..وغيرها، والمصطلحات البلاغية من بينها: التضمين، الحل، العقد، التلميح. وغيرها، وقد طُرح المصطلح –مؤخرا- عند بعض النقاد بوصفه شكلا من أشكال التناص من كونه يمثل عملية تواصلية من جهة، وعملية تتيح للمبدع أن يحدث انزياحا محدودا في خطابه من جهة

1- ينظر: آمنة بلعلى، المتخيل في الرواية الجزائرية من المتماثل إلى المختلف، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، تيزي وزو، 2011م، ص 7.

2- ينظر: شادية شقروش، سيرورة الدلالة وإنتاج المعنى، قراءة سيميائية في الأدب السعودي المعاصر، دار جامعة الملك سعود، كرسي البحث السعودي، ط1، المملكة العربية السعودية، الرياض، 2016م، ص م.

3- ينظر: منتصر أمين عبد الرحيم، تداولية الاقتباس دراسة في الحركية التواصلية للاستشهاد، كنوز المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، عمان، الأردن، 2013م، ص 35.

4- ينظر: صالح هنري صالح، التناص في شعر ابن الأبّار الأندلسي، دار المستشارون للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، عمان، الأردن، 2016م، ص 38.

أخرى، ويتم تأويله؛ الاقتباس على أنه ذو طبيعة معينة، وهي: أن يتخلص من هوامش النص الغائب، ويصبح جزءاً أساسياً في البنية الحاضرة؛ أي أنه يخرج من سياق نصه الأصلي، ليندمج في سياق النص الجديد، ويعطي معنىً آخر، ودلالة تواصلية أخرى. وانطلاقا من هذا التداخل والتشابك بين المصطلحات قديما، وحديثا، فرضت علينا الطبيعة المنهجية النظر في المصطلح، ومعرفة حدود مفاهيمه، وتحولاته في السابق والحاضر، وقبل التعرض لإشكالية المصطلح قديما وحاضرا سنتناول المفاهيم اللغوية والاصطلاحية للمصطلح. وسنبدأ بـــ :

1-الاقتباس لغة

بالعودة إلى معاجم اللغة العربية سنجد أن مفردة الاقتباس قد وردت بدلالات لغوية متشابهة، ومتقاربة حد التطابق؛ فاللفظة مشتقة من مفردة قَبَسَ؛ وتعني الأخذ. ولو حاولنا إجمال ما جاء من دلالات في تلك المعاجم فسنجد أن اللفظة مشتقة من

«القبس: الشعلة من النار. وفي التهذيب: القبس شعلة من نار نقتبسها من معظم، واقتباسها الأخذ منها، يقول تعالى: بشهاب قبس، القبس: الجذوة، وهي النار التي تأخذها في طرف عود. وفي حديث عليّ، رضوان الله عليه: حتى أورى قبسا لقابس أي أظهر نورا من الحق لطالبه، والقابس: طالب النار، وهو فاعل من قبس، والجمع أقباس، لا يكسر على غير ذلك، وكذلك المقباس، ويقال قبست منه نارا أقبس قبسا فأقبسني أي أعطاني منه قبسا، وكذلك اقتبست منه نارا، واقتبست منه علما أيضا أي استفدته، قال الكسائي: واقتبست منه علما ونارا سواء، قال وقبست أيضا فيهما. وفي الحديث: من اقتبس علما من النجوم اقتبس شهبه من السحر، وفي حديث العرباض: أتيناك زائرين ومقتبسين أي طالبي العلم، وقد قبس النار يقبسها قبسا واقتبسها. وقبسه النار يقبسه: جاءه بها، واقتبسه وقبستكه واقتبسنكه، وقال بعضهم قبستك نارا وعلما، بغير ألف، وقيل أقبسته علما وقبسته نار أو خيرا وإذا جئته به، فإذا كان طلبها له، قال: أقبسته، بالألف. وقال الكسائي: أقبسته نارا أو علما سواء، قال وقد يجوز طرح الألف منهما. ابن الأعرابي: قبسني نارا ومالا وأقبسني علما، وقد يقال بغير الألف، وفي حديث عقبة بن عامر: فإذا راح أقبسناه ما سمعنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، أي أعلمناه إياها. والقوابس: الذين يقتبسون الناس الخير يعني يعلمون. وأتانا فلان يقبس العلم فأقبسناه أي علمناه، وأقبسنا فلانا فأبى أن يقبسنا أي يعطينا نارا،

وقد اقتبسني إذا قال: أعطني نارا وقبست العلم وأقبسته فلانا. والمقبس والمقباس: ما اقتبست به النار.»[5]

وقد وردت اللفظة بمعنى الأخذ أيضا، في "معجم العين"، ويظهر ذلك في قوله:«القبس: شعلة من نار تقبسها وتقتبسها أي تأخذ من معظم النار، وقبست النار، واقتبست رجلا نار أو خيرا. وقبست العلم واقتبسته. وأقبست العلم فلانا وأبو قبيس:جبل مشرف على مكة »[6]، وتتواتر الدلالة اللغوية نفسها في "معجم متن اللغة للعلامة اللغوي الشيخ أحمد رضا"[7]و"معجم القاموس المحيط للفيروزبادي"[8]، و"معجم الصحاح للجوهري"[9]، ولا تخرج دلالة الاقتباس اللغوية عمَّا ورد في "معجم لسان العرب لابن منظور"؛ ذلك أن معظم المعاجم في عمومها تنطوي تحت نفس المعاني، إما باختصار أو بفيض. وعليه يمكن اختصار تعريف الاقتباس لغويا في فكرة: طلب القبس؛ أي الشعلة من النار؛ أي الاستعارة لطلب العلم، وأخذه، فهو لغة الأخذ والاستفادة وطلب العلم[10]، وقد علل بعضهم التعريفات اللغوية السابقة بقولهم «سمي الإتيان بالقرآن أو الحديث على الوجه المذكور اقتباسا أخذا من اقتباس نور المصباح من نور القَبَس، وهو الشهاب؛ لأن القرآن والحديث أصل الأنوار العلمية»[11]؛ ويتبين من هذا التعليل بأن الاقتباس ارتبط بالقرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف فقط، وهذا ما استدل به القدماء، في حين هناك مِنَ المحدثين مَنْ وسعوا في دائرته؛ حيث ربطوه بنصوص أخرى كالفقه، والحكمة، والشعر، والنثر، والأساطير.. الخ. وقد أكّد هؤلاء أقوالهم بجزئية من المدلول اللغوي للفظة اقتباس التي تدور حول معنى

5- أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، المجلد السادس، دار صادر، بيروت، ص 167.

6- أبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق الدكتور مهدي المخزومي، الدكتور إبراهيم السامرائي، الجزء الخامس، ص 86.

7- أحمد رضا، متن اللغة، موسوعة لغوية حديثة، المجلد الرابع، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1960م، ص 384.

8- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادي، القاموس المحيط،مراجعة، أنس محمد الشامي، زكريا جابر أحمد، دار الحديث،ط1، القاهرة، 2000م، ص 1281

9- أبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، مراجعة الدكتور محمد تامر وأنس محمد الشامي، وزكريا جابر أحمد، دار الحديث،ط1، القاهرة، 2009م، ص 911.

10-ينظر:كاظم عبد فريح المولى الموسوي، الاقتباس والتضمين في نهج البلاغة، دراسة أسلوبية، مرجع إلكتروني، ينظر الرابط http://www.haydarya.com/maktaba_moktasah/07/book_111/ektibas.pdf

11- عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر، الاقتباس أنواعه وأحكامه دراسة شرعية بلاغية في الاقتباس من القرآن والحديث، عضو هيئة تدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع بالرياض، ص 14.

الأخذ، والانتزاع، -دون تحديدهم هوية أو صنف النص المقتبس - وهذا يتنافى مع ما ردده القدماء من قطع النظر كون المضمن، أو المقتبس قرآنا أو حديثا، اللهم إلاّ أن يقال: إن ذلك اصطلاح، ولا مشاحة في الاصطلاح[12]،ولعل هذا بقي محل خلاف بين القدماء/البلاغيين والنقاد، وبين المعاصرين ؛ ذلك أنّ الاقتباس مصطلح قديم تشابك -على مر العصور- مع العديد من المصطلحات المعاصرة، المختلفة في دلالتها. وسنحاول في هذا السياق -بعد تناول مجمل ما ورد في المعاجم اللغوية العربية- التطرق للتعريفات الاصطلاحية.

2-الاقتباس اصطلاحا

لم يتخذ الاقتباس وجها اصطلاحيا واحدا بل ورد بأكثر من رؤية اصطلاحية، تتسع وتضيق بحسب العصر الذي هو فيه، ولكن على الرغم من كل ذلك هناك أساس تعريفي قام عليه قديما تجلى في أنه: «تضمين الكلام شيئا من القرآن الكريم والحديث الشريف من غير دلالة على أنه منهما»[13]، ويتوافق هذا المفهوم مع ما جاء به "الخطيب القزويني" في قوله بأن الاقتباس هو تضمين: «الكلامُ شيئاً من القرآن أو الحديث، لا على أنّه منه»[14]، وهنا نفهم الفرق بينه وبين الاستشهاد الذي يفرض ضرورة التنبيه على القول، وقيل أن الاقتباس أيضا هو «أن تدرج كلمة من القرآن، أو آية منه في الكلام تزيينا لنظامه، وتضخيما لشأنه، فهو تضمين الكلام كلمة من آية أو آية من آيات كتاب الله، أو من حديث الرسول عليه الصلاة والسلام»[15]؛ فالمتأمل للتعريف الثاني ستتضح له وظيفة الاقتباس، بأنه ذو وظيفة جمالية تقوم بتزيين المعنى، والإعلاء من شأنه؛ أي أن الشق الأول من التعريف ثابت؛ وأعني التضمين، أما الشق الثاني فهو جزئية مكملة تعني بإبراز الوظيفة.

وقد عرّفه "السيوطيّ" في "الإتقان" فقصرَه على القرآن دونَ الحديثِ بقوله: هو تضمينُ الشعر أو النثر بعضَ القرآن، لا على أنّه منه، بألّا يقال فيه: قال الله تعالى وذكر ابن حجَّة في الخِزانة أنّ تسميةَ الأخذِ من القرآن بالاقتباس هو الإجماعُ، في حين ذهب

12- ينظر: المرجع نفسه ص 16.

13- المرجع نفسه، ص 15.

14- ينظر محمد بن إسماعيل البخاريّ، تح:د.مصطفى البغا، الجامع الصحيح، دار ابن كثير، ط3، اليمامة، بيروت، 1987، نقلا عن د. خليل محمد أيوب، الاقتباس اللغوي من القرآن الكريم في الحديث النبوي الشريف، مقال نقدي صادر عن صحيفة الألولة الأدبية واللغوية،23 أفريل2014م، ينظر الرابط الإلكتروني: https://www.alukah.net/literature_language/0/69670/

15-كاظم عبد فريح المولى الموسوي، الاقتباس والتضمين في نهج البلاغة، دراسة أسلوبية، ص 14.

"السّيوطيّ" في "الحاوي للفتاوى" في رسالته "رفع البأس" إلى أنّ الاقتباس كان يُسمّى عند الصّدر الأوّل من الصّحابة والتّابعين، فمن بعدَهم من الأئمّةِ والعلماء ضربَ مثلٍ وتمثُّلاً واستشهاداً إذا كان في النثر، وقد يُسمّى اقتباساً بحسب اختلاف المورد، فإذا كان في الشعر سُمّيَ اقتباساً لا غير[16]، وإذا توقفنا عند قوله «لا على أنّه منه» كما هو وارد في تعريف كل من "القزويني والسيوطي" فيمكن القول بأن التغيير في المقتبَس إذن إمّا يصيب اللفظَ من غير أن يَخْرُجَ به المقْتَبِسُ عن معناه، وإمّا اقتباسٌ يخرجُ به عن معناه. وعليه يأتي إمّا اقتباسُ لفظٍ، وإمّا اقتباسُ معنى، وقد تحدث الثعالبيّ في كتابه "الاقتباسُ من القرآن" فصلاً لِمَا اقتبس النّبيُّ معناه من القرآن، فعنونَ له بعنوان:("فصلٌ في بعض ما جاء عنه عليه السلامُ من الكلام المقتبَس معناه من القرآن" ثمّ أتبعه بفصلٍ لِما اقتبس لفظه من القرآن تحت عنوان: "فصلٌ في بعض ما جاء عنه عليه السلامُ من الكلام المقتبَس من ألفاظ القرآن") [17] من هنا تصبح هذه التعريفات -متقاربة إلى حد ما- مع التعريفات اللغوية بحيث تلتقي في المعنيين: «الحقيقةِ والمجازِ، معانيَ الأخذِ والصِغَرِ والانتفاع؛ إذ طالبُ النّار يأخذ شعلةً صغيرةً من معظم النّار، وطالبُ الكلام يأخذ من كلام غيره جملةً أو أقلَّ أو أكثر، وطالبُ النّار تأْنَسُ نفسُه بالنّار، فيستضيءُ بها، ويصطلي، وطالبُ الكلام يأْنَسُ بالمقتبَس، فيقْبِسُه، فيزيّنُ به كلامَه على نحوٍ حسنٍ جميلٍ.»[18]

وقد عرف "حسين المرصفي" الاقتباس بقوله: «هو أن يزين المتكلم كلامه بعبارة من القرآن الكريم يظهر أنه منه، وإنما يحسن ويكون مقبولا إذا وطن لها في الكلام بحيث تكون مندرجة فيه، داخله في سياقه دخولا تاما، فالاقتباس يكون اقتباسا إذا لم يكن إيراد ما يورد على سبيل الحكاية، وإلاّ كان استدلالا واستشهادا»[19] وبالنظر في هذا التعريف فسنجد بأنه لا يبتعد عن غيره فيما سبق من تعريفات إلاّ في مسألة واحدة ألا وهي مسألة حسن التوظيف/توظيف الاقتباس. إنّ هذا التفاوت في تحديد هوية المصطلح وتعريفه بين اشتراك في الأصل؛ واختلاف في الفرع؛ أي في مدى حضور هذا الأصل المقتبس، وشكله، هو الذي يجعلنا نصارع إشكالية المصطلح في مسألة الثبات على رؤية تعريفة واحدة. ولعل القارئ والمتأمل العادي لكل هذه التصورات -في عمومها- سيجد بأنها متشابه، بل إنه قد

16- ينظر: د. خليل محمد أيوب، الاقتباس اللغوي من القرآن الكريم في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق.
17- ينظر : د. خليل محمد أيوب، الاقتباس اللغوي من القرآن الكريم في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق.
18- ينظر: المرجع نفسه.
19- حسين المرصفي، الوسيلة الأدبية، المدارس العربية، ب.ط. 1975، ص 84

يجمع بأنها نفسها، ولكن اختلاف كلمة، وزيادة مفردة أو جملة، قد تؤثر في التعريف، وتمنحه مدى أوسع، بل ربما تجعلنا نأخذ توجها آخر.

وعليه فإن تناول كل هذا الجمع من التعريفات اللغوية- بين معاجم عربية وأخرى غربية- واصطلاحية-بين قديم ثابت عند بعضهم، ومختلف فيه عند البعض الآخر، لم تكن لغرض التكرار بقدر ما هو تأكيد لبعض المسلمات التي اشترك في بعضها فئة من المنظرين، وخالفها البعض الآخر، ولعل ما يؤكد قولنا هو ما استحضره "القزويني" في تعريفه للاقتباس حين قال: «هو أن يضمن الأديب منثوره شيئا من القرآن أو الحديث-على سبيل المثال- على وجه لا يبدو بأنه منهما»[20]. فلو دققنا قليلا فيما قاله عنه هنا سنخلص إلى فكرة مهمة ممثلة في حَصر الاقتباس في النثر دون الشعر؛ في حين يرد تعريف آخر يضيف النظم للنثر. إضافة إلى كل ذلك يشترك هذا التعريف؛ أو ربما يجسد فكرة التناص؛ فقوله" على وجه لا يبدو بأنه منهما" تؤكد فكرة التفاعل، والتداخل النصي، دون قيد المزدوجتين "«»"، وحضور صاحب القول في النص الإبداعي، وهذا ما يعادي التعريفات السابقة. وبعيدا عمّا إذا تعلق الأمر بتضمين الكلام نثره، وشعره شيئا من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، نلاحظ بأن مسألة التضمين لم تخرج عن دائرة القرآن والسنة، وهذا ما نص عليه القدماء، في حين هناك من المحدثين من يضيف إلى التعريفات السابقة بأن الاقتباس يشمل أيضا الحكمة والأسطورة والقصص.. الخ، ويظهر ذلك في ما أورده "جمال مبارك" حين قال بأنه: ليس الأخذ من القرآن الكريم والحديث الشريف فقط، بل يحصل أن يرد في نصوص الشعراء القدامى، عن طريق استدعاء "حكمة" أو "مثل" أو "قصة" أو إشارة إلى "بيت مشهور"، حيث يقوم المبدع -أحيانا- ببناء خطابه الشعري جملة بالاستناد إلى خطاب آخر من غير دائرته؛ أي خطاب النثر؛ فعملية البناء هنا شبيهة بعملية "العقد"؛ فوجه الشبه بين "الاقتباس و"العقد" يلاحظ على المستوى الفني، أما الاختلاف بينهما فيكمن في تناسي هوامش النص الإضافية في الاقتباس، أما في العقد فيحافظ عليها[21]، ولعل هذا-التعريف- الأخير ملم وشامل-في نظري- ذلك أنه لم يحصر الاقتباس في نص بعينه، بل وسّع دائرته متجاوزا في ذلك مسألة الحصر في النص المقدس.

20- الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تقديم وتبويب وشرح علي بوملحم، دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر، د.ط.، بيروت، لبنان، 2000م، ص 342، نقلا عن الأستاذة هنا حلاسة، دلائل التداخل النصي في التراث العربي، قسم الآداب واللغة العربية، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، مرجع إلكتروني، ص 4.

21-ينظر: جمال مبارك، التناص وجمالياته في الشعر الجزائري المعاصر، دار هومة للنشر، د.ط، الجزائر، دت، ص 59.

ولو حاولنا البحث في أسباب هذه الاختلافات، لوجدنا بأنها عائدة-ربما- إلى الفترة الزمنية التي تحد المصطلح منذ الولادة إلى وقتنا الحاضر، إضافة إلى تعدد استعمالاته، الأمر الذي جعله يتخذ أكثر من رؤية اصطلاحية؛ فالاقتباس في البلاغة والنقد القديم يحمل دلالة، وفي وقتنا الراهن أضيفت له دلالات أخرى؛ فالمصطلح مر بتحولات زمنية تداخلت فيما بينها المصطلحات وتعددت، ولكنها لم تخرج عن الإطار العام له فهي -في عموما- سلسلة مصطلحية قد تكون مكملة لبعضها البعض. وانطلاقا من هذه المفاهيم نخلص إلى إشكالية واضحة تشكلت عبر الزمن لتبقى المداخلة معلقة بين دفتيها وهي إشكالية المسار التاريخي للمصطلح في كل من البلاغة والنقد العربي القديم، والبلاغة والنقد الحديث منه والمعاصر؛ أي إشكالية المصطلح في السابق والحاضر.